العراق متطور

•

وليس شيء أدل على تطوّر العراق من خضوعه لهذا التجاذب الذي يغلو به يميناً كما يغلو به يساراً في تقابل عجيب بين نزعتي « الجمود » و « الشعبية » المختلفتين اختلافاً يربك في كل من اليمين واليسار مذاهب تخرج على الفلسفات المعروفة لمذاهب المبدئين النظرية والعملية .

ولا بد لمن يتحدث عن العراق في موضوع كهذا — لا بد له من كلمة تجمل هذه الحيرة التي تبين بوضوح حين نستعرض سياسة العراق ، او أدبه ، أو أي ركن من اركان حياته التي نطلب فيها الاستقرار، لنحكم على العراق بالاستقرار في ناحية من نواحيه الكثر.

والواقع من امر هذه الحيرة ان العراق معذور فيها حتى الآن لانه ما يزال متطلعاً في نهضته يتشوّف الى النماذج ، ويتوق الى

القدوة كلما لاحت له في نزعة او مذهب من نزعات الحياة ومذاهبها المختلفة ، وليس في ذلك من ضير ابداً ما دام يحس الحيـــاة بشتى فروعها احساساً قوياً عنيفاً متوهجاً زاخراً بالاشواق والاماني ، ليس من ضير مع هذا في ان يكون حائراً متطلعاً متوثباً لهـــذا وذاك من المذاهب ، ولهـــذه وتلك من النظريات ، لأن الرجاء بالاستقرار في نهاية الشوط كامن في سريرة ذلك الاحساس القوي العنيف المتوهج الزاخر بالاشواق والاماني .

على اننا حين ننصف البحث ونحيطه بمصادره العلمية لا نجد هذه الحيرة غريبة عن عوامل العراق التاريخيـة والكونية والبيولوجية وما يتصل بها من هذه المصادر الطبيعية للتنقل والطواف ، والعشق والكراهة ، والاقبال والادبار ، وما الى ذلك مما لعـله لا يختص بالعراق دون غيره من بلادنا التي تعرف من هـذا ألواناً تتفاوت نسبها منها ضعفاً وقوة بتفاوت حظوظها من التربية من جهة ، ومن تأثرها بهذه المصادر من جهة اخرى .

إذن فالعراق – بحكم هذه الحيرة المنبثقة من جميع هذه العوامل الراهنة – بلد متطور . وليست العبرة من هذا التطوّر بكيفها او مقدارها وانما العبرة بالتطور ذاته من الاساس .

واذ دنونا الى هذه النقطة نعود الى اثر هذا التجاذب السياسي في تنبيه اعصاب العراق من جهة ، وعرقلة صعوده من جهة اخرى ، وذلك ما نشاء ان نجعله قياساً لمبلغ تأثره بالتطور .

ولا شك في ان العراق ممتحن بطمحين خطـــيرين من المطامح الاجنبية : في اولهما مغرز للامنيـة الاقتصادية التي تسترق أسواق

الشرق ، وفي الثاني اساس يعلو منه السد الاستراتيجي لحماية تلك الامنية المستوقة ، كما قلنا قبل قليل .

وهذان المطمحان هما علتاه الجوهريتان في خضوعه لهـذا التجاذب العنيف ، ولكن مستواه الفكري ودرجته من الوعي الاجتماعي الضروري لتأثير النضال كانا صاحبي الاثر المباشر في تأرجحه من الداخل في تجاذب جديد بين طبقتين او بين طبقات – على الاصح – من اهله سبّب هذا التناقض الذي نجده بين عنف الاحساس وتنبه الاعصاب في جانب . وبين الرضى والقعود في ممر القوافل السائرة في جانب آخر .

ويخيل اليّ ان العراق لم يطوّق بهذه السلسلة ، لكان له اليوم شأن غير شأنه ، ولكن الاقوياء الغالبين في اقصى الارض خيموا عليه بأطماعهم فأخروه عن وثبته المنتظرة من قبل ، والتي تأخرت عن وقتها الى حد ما .

وفي العراق من هذه الطبقات طبقة من الشبان والمثقفين يسايرون الحركة العالمية مسايرة هضم وخبرة وتأثر وايمان ، وهذه الطبقة يمينها ويسارها الا القليل منهما تقوم بوظيفة « القطرات » المنبهة لاعصاب القلب ، فمنها تصعد الصرخات ومن اقلامها تنطلق شرارة الاصلاح والتوجيه .

ووراء هذه الطبقة طبقتان : احداهما الطبقة الحاكمة ، والثانية الطبقة الراضية بنظامها الاقتصادي الحلوب الذي يدرّ عليها سمناً وعسلاً . وهاتان الطبقتان هما الوتدان اللذان يمسكان النهضة من الوراء ويقعدانها كلما حاولت الوثوب ، او يفتقانها كلما همت بالانتفاض .

غير ان الطبقة المدركة النامية الشعور طفقت منذ حين تبعث (حميات) الوعي والاصلاح في صفوف الطبقات الكادحة ماضية لا تلوي بمعنة امعاناً اضطر المسؤولين والمسيطرين على الحكم إلى تجارب عدة اديل بين وجوهها لثلاث حكومات كانت متقاربة الاعمار خلال سنة ونيف ، وكانت كل حكومة تتألف باسم (الانتقال) غير انها لم تكن في الواقع إلا تجربة من تجارب الحكم على ضوء التجاذب العالمي المتصل بالحركة التطورية في العراق، وكانت هذه التجارب تروض الحركة التطورية على مطاوعة احد المتجاذبين وعلى اخضاعها لاحدى المصلحتين .

ولا يعنينا الآن ان ندخل في صميم الحوادث السياسية ، بل يعنينا ان نستعين بالاحداث السياسية على فهم التطور العراقي في هذه اللحظة بامانة وتجرد ، ولتسلسل الحوادث مكان آخر .

ولاجل ان نبلغ درجة من الوضوح نسمي الاحداث باسمائها . وغير بعيد على المهتم بهذا الموضوع ان يعود معي إلى الفترة الواصلة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦ لنتذكر ان ازمة وزارية كبرى تعقدت يومئذ في العراق وان المنظورين في مثل هذه الازمة احجموا عن تشكيلها احجاماً شديداً ، وان مؤتمراً فرداً في بابه عقده صاحب السمو الوصي على عرش العراق وجمع اليه رؤساء الوزارات والوزراء في جميع العهود والقى اليهم منهجاً جديداً بكراً عرض فيه لاداة الحكم ووسائل الاصلاح واعتماد الشباب في هذين الاساسين الجديدين ، وطلب اليهم ان يستقبلوا السلم من هذه النقطة وبهذا الاتجاه .

ولم يكن ذلك كله - في الواقع - الا نتيجة لهذا التفاعل الشديد بين رأيين يتحاربان ، وبين هيئتين تصطرعان في مصعد التطور ، وتتداعيان على المصلحة في ظل التجاذب الذي تعانيه السياسة العليا ، ولا يمكن الجزم بان الاراء المتفاعلة على هذا النحو كانت ملتفتة إلى انصباب هذه العوامل أم كانت تتأثر بها من غير التفات ؟ وانه لغير مهم جداً ان تكون ملتفتة او غير ملتفتة ما دام الواقع يثبت ان نمو (التطور) - بطبيعته - يقتضي ان تكون الحال على هذا النحو ، وما دام الواقع يثبت ايضاً ان التفاعل بين قوتين كبريين كان امراً حقيقياً لا مراء فيه .

هذا كله فرض على العراق أو على موجهي السياسة العراقية التقليديين ان تكون التجارب هي الخطة السياسية بين يدي التركز والاستقرار .

وقد مرت حتى الآن اربع تجارب قضي عليها بالفشل جميعاً .

اما الاولى فقد كانت تجربة « الحرية » وهي تجربة « عهد توفيق السويدي » وهواول عهد تسلم زمام الحكم بعد منهج الوصي » . ولكن العهد لم يكد يمضي في تجربته ، حتى تبين وعورة الطريق واكفهرار الجو ولم يجد في هذه الحالة مندوحة عن ترك الميدان واعتزال الحكم .

واما الثانية فقد كانت تجربة « العنف » والاخذ بالشدة في غير هوادة ولا لين . وهي تجربة ارشد العمري . غير ان هذه التجربة لم تكن أقل حظاً من التجربة الاولى فشلاً واخفاقاً .

وأما الثالثة فقد كانت تجربة وسطاً بين هاتين ، لها مظهر تلك

بل أنعم ملمساً وأهش ثغراً ، ولها روح هذه بل أشد وقعاً وأصول سطوة، وهكذا قادها السيد نوري السعيد تجربةً محكمةً لم يدر عليها غير اسابيع حتى تفرق سمار الاحزاب وتخاذل الناس على انفسهم وكاد ان ينتهي الشوط ويسفر عن « حرية » شعبية تعرفها معاجم الاستعمار لولاغلطة أو غلطات حدثت دون النهاية في الانتخابات النيابية التي أعادها سيرتها الاولى تعييناً صريحاً لا يداخله الريب .

ويمكن الان ان نستخلص ان العراق بلد متطور في هذه اللحظة شديد اللهفة الى حال فضلى . وانه ما يزال طالعاً يتشوف الى القواعد المثلى، وان لهفته الشديدة بالغة به الغاية على أجنحة اشواقه وأمانيه ، ولكن لا تسلني متى وكيف ؟ فقد تطول المدة وقد تقصر ، وقد يبطىء هو وقد يسرع . فتلك امور مرهونة بظروفه ووسائله ولا امنع أن تكون في طريقه معوقات جمة من الصعب تذليلها بسرعة ، ولكن مؤهلاته من حيث نظرتها غزيرة قوية خصبة تضمن له أهنأ حياة .

هذا كنت اثبته قبل التجربة الرابعة المتمثلة في وزارة «جبر» لمجلة « العالم العربي » بناء على طلب منها بواسطة وكيلها الاستاذ بدوي طبانه يوم كان مدرساً في دار المعلمين العالية ، إذ دعاني الى ان أسهم بتحرير المجلة بين الفينة والفينة فيما يبدو لي .

وما زلت عند رأيي فيه لذلك لم أحور منه شيئاً الا كلمات قليلة جداً اقتضى اضافتها مرور الزمن على كتابه الموضوع .

والحكم على التجربة الرابعة هذه سيأتي في غضون «التسلسل التاريخي» لهذا الحادث وهو ما سنتحدث عنه بعد قليل .